

دار الخلافة العباسية

« تعيين موضعها وأشهر مبانيها »

دكتور مصطفى جواد

يراد بدار الخلافة العباسية منذ أواخر القرن الثالث للهجرة البقعة الشرقية من بغداد التي كانت فيها قصور الخلفاء العباسيين ودورهم ومجالسهم ودواوين دولتهم ومخازنها ، وبساتينهم وحدائقهم ، ودور رجال دولتهم المقربين ومماليكهم الأذنين . وكان فيها أبنية أخرى لمصالح آخر ومخيمات لأرباب الجاه والثراء والتجار الأغنياء وأصحاب الأملاك ، فهي دار بالاسم ومدينة في الحقيقة . قال هلال بن المحسن ابن الصابي :

« كان عضد الدولة البويهبي عند قدومه إلى الحضرة في سنة أربع وستين وثلاثمائة ... أحب أن يشاهد دار الخلافة ويستقري أبنيتها ومجالسها ودورها وصحنونها ودواخلها وغوامضها ، فصار إليها وطافها موضعاً موضعاً ، وبين يديه مؤنس الحاجب ، يريه شيئاً شيئاً ، ويعرفه مكاناً مكاناً حتى انتهى إلى دار السر المرسومة بالحُرَم وقف مؤنس فقال له عضد الدولة : ارجع بنا عنه . وتجاوزته ولم يدخله ^(١) . قال : وكانت داراً عظيمة السعة وعلى أضعاف ما هي عليه الآن من هذه البقية الرائعة ودليل ذلك أنها كانت متصلة

(١) رسوم دار الخلافة . تحقيق الباحث ميخائيل عواد ص ٨٧ .

بالْحَيْرِ وَالْثُرَيَّا ، ومسافة ما بينهما اليوم بعيدة ، وإنما انفصلا عنها وطل مداها منها بما أتى عليه الحريق والهدم من الدور والمنازل والبنيان والعمران في الفتنة عند خلع المقتدر بالله - ص - وعوده والقبض على القاهر بالله ، وقتل المكنى أبا الهيجاء ابن حمدان وما بعدها من الفتن المترادفة بالأيدي المتخالفة فإن ذلك استهلك الشطر الأكبر منها ، ومن بعض أمورها أنه كان فيها مزارع وأكرة - يعني الزراع - وعوامل - يعني البهائم التي يستقى عليها - برسمها وأربعمائة جام لمن تحويه من أهلها وحواشيها .. » (١) .

وقال الخطيب البغدادي : « حدثني هلال بن المحسن قال حدثني أبو نصر خواشاده خازن عضد الدولة بن بويه قال : طفت دار الخلافة عامرها وخرابها وحریمها وما يجاورها ويتاخها فكان ذلك مثل مدينة شيراز . وسمعت هذا القوم من جماعة آخرين عارفين خبيرين » (٢) .

وقال ابن جبير في وصف بغداد : « وأما الشرقية فهي اليوم دار الخلافة وكفاها بذلك شرفاً واحتفالاً ، ودور الخلافة مع آخرها ، وهي تقع منها في نحو الربع أو أزيد ، لأن جميع العباسيين في تلك الديار ، معتقلين (٣) اعتقالاتاً جميلاً ، لا يخرجون ولا يظهرن ، ولهم المرتبات القائمة بهم ، وللخليفة من تلك الديار جزء كبير قد اتخذ فيها المناظر المشرفة والقصور الرائعة والبساتين الأنيقة » (٤) .

أستطيع أن آتي بنصوص أخرى في وصف دار الخلافة العباسية ولكن المهم هو تعيين موضعها من بغداد الحالية ، فأعسر الأمور في خطط بغداد هو معرفة أسمائها ومواقعها ومواقعها معاً ، لأن الأسماء تغيرت والأنهار اندفنت ، والمباني اندثرت ، والحدود زالت ، وصار الناس يحسبون أن الجانب الشرقي هو محلة الرصافة (٥) ، وأن الجانب الغربي هو

(١) المرجع المذكور ص ٤٧ . (٢) تاريخ بغداد ١ : ١٠٠ .

(٣) رحلة ابن جبير (ص ٢٢٦-٢٢٧) . (٤) معتقلين حال من صاحب الخبر « في تلك الديار »

(٥) محلة الرصافة حافلة التاريخ من حيث حوادثها وخطتها وسأفرد لها بحثاً مفصلاً .

الكرخ مع ان الرصافة كانت محلة عليها سور وكانت قرب قبر الامام ابي حنيفة رضي - من جهة الجنوب ، وأن الكرخ كان محلة مسورة بالجانب الغربي في موضع الشالجية وما يليه من الشرق ، ونجد جماعة من الناس يفتأون على التحقيق العلمي فيسمون المواضع والمحلات والمشاهد والمساجد كيفما شاؤوا ، من غير علم ولا تحقيق ، ويظنون أن قراءتهم للتواريخ وعنايتهم بها تبيحهم أن يتكلموا في علم الخطط فوزعوا الأسماء على حسب الأهواء لا على صحيح الأنباء وتحقيق الألباء .

والبحث في خطط بغداد التطبيقية ينبغي أن يعتمد على ركائز قائمة ومنها تبدأ حركة التعيين ، فلها في الجانب الغربي قبر الامام موسى بن جعفر - ع - وتربة الشيخ معروف الكرخي - رضي - ومشهد المنطقة المسمى اليوم بجامع براتنا ، ومسجد قرية وتربة الشيخ سندل المنسوبة إليه محلة الشيخ سندل ، وركائز البحث في الجانب الشرقي قبر الامام ابي حنيفة - رضي - وقبر أم رابعة شاه لبني الأيوبية ، والمدرسة المستنصرية ، وجامع الخفافين المجاور لها من الجنوب ، وتربة الشيخ عبد القادر الجيلي المعروف بالكيلاني وجامع الخليفة المعروف بجامع سوق الغزل ، ومواضع وقطع من سور شرقي بغداد قلت بالهدم أخيراً ، فاذا قال لنا القائل كيف استدلتكم على أن هذا الجانب الشرقي من بغداد العتيقة غير الرصافة ؟ قلنا : قال ياقوت الحموي في مادة الرصافة من معجم البلدان : « رصافة بغداد بالجانب الشرقي ، لما بنى المنصور مدينته بالجانب الغربي واستتم بناءها أمر ابنه المهدي أن يعسكر في الجانب الشرقي وأن يبني له فيه دوراً ، وجعلها معسكراً له ، فالتحق بها الناس وعمرها فصارت مقدار مدينة المنصور ، وعمل المهدي بها جامعاً أكبر من جامع المنصور وأحسن ، وخربت تلك النواحي كلها ، ولم يبق إلا الجامع وبلصقه مقابر الخلفاء لبني العباس وعليهم وقوف - أي أوقاف - وفراشون برسم الخدمة ولو لا ذلك لخربت وبلصقها محلة أبي حنيفة الإمام وبها قبره ، وهناك محلة وسويق وتلاصقها دار الروم ، لم يبق شيء غير

هذا .. « فالوضع الملاصق محلة الإمام أبي حنيفة رضي - لا يمكن أن يكون منها على مسافة أكثر من كيلو مترين كشرقي بغداد العتيقة الحالي ، إذن كيف تعين موضع دار الخلافة ولم يبق من بنياتها شيء ولا من مرافقها أثر ؟ نعيها بأخذ المدرسة المستنصرية ركيزة للتعين ، قال ابن أبي الحديد عبد الحميد شارح نهج البلاغة في ذكر المستنصرية :

مخيمة على نهر المعسلي فدجلة لا المنيفة فالضمار

فالمستنصرية مخيمة على نهر المعلى المستمد ماءه من نهر موسى ، المستمد ماءه من نهر بين ، المستمد ماءه من النهروان فوق الجسر أعني فوق بلدة جسر بوران التي كانت على النهروان على مقربة مما يسمى بكاسل بوست الآن .

وقال الخطيب البغدادي في وصف دار الخلافة راوياً عن غيره : « كانت دار الخلافة التي على شاطيء دجلة تحت نهر المعسلي قديماً للحسن بن سهل وتسمى القصر الحسيني » (١) . فالمستنصرية كانت توصف بأنها مخيمة على نهر المعلى ودار الخلافة كانت على شاطيء دجلة تحت نهر المعلى ، فهي تحت المستنصرية بالتحقيق ، فينبغي تحديد هذا « التحت » أقرب هو أم بعيد ؟ قال أبو الفداء في تاريخه في الكلام على سيرة الخليفة المستنصر بالله : « وهو الذي بنى المدرسة ببغداد المسماة بالمستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقي مما يلي دار الخلافة » (٢) . وهذا قول جمال الدين محمد بن واصل الحموي المؤرخ الفيلسوف في كتابه « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » وقد طبع منه ثلاثة أجزاء ولم يصل الطبع إلى هذا القول ، قال في سيرة المستنصر « وعمرت البلاد في أيام المستنصر بالله رحمه الله عمارة عظيمة ، وأثر فيها الآثار الجميلة من ذلك أنه بنى على شط دجلة من الجانب الشرقي مما يلي دار الخلافة مدرسة سميت بالمستنصرية لم يبن على وجه الأرض مدرسة أحسن منها ولا أكثر وفقاً » (٣) .

(١) تاريخ بغداد « ص ٩١ » . (٢) المختصر في أخبار البشر « ٢ : ١٧٩ » .

(٣) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ١٧٠٣ و ١٨٠٠ » .

وبما قدمنا علمنا أن دار الخلافة كانت على مقربة من المدرسة المستنصرية من الجنوب بحيث كان موضعها يلي دار الخلافة أي يقرب جداً منها ، وهذا الفعل « يلي » يستعمل كثيراً لبيان القرب الذي هو دون الملاصقة ، قال أبو الفرج بن الجوزي في ذكر زوارق جاءت في دجلة : « فربطت فيما يلي باب المدرسة » (١) . وهذا القرب يقاس بهذا الفعل حين لا تكون المسافة مقيسة بمقاييس الطول القديمة المعروفة ، وحين لا يكون قياسها ذا فائدة توجب ذكره .

فهذه هي الطريقة العلمية في تعيين المواضع العمرانية التي ذهب عمرانها وزالت آثارها ، وخصيت معالمها كدار الخلافة العباسية الأخيرة ، وقد علمنا بما نقلنا من النصوص الجغرافية التاريخية أنها كانت على مقربة من المدرسة المستنصرية من جهة الجنوب ، وقد ذكرنا أنها كانت ذا سعة قدرها ابن جبير بأكثر من ربع الجانب الشرقي ، وقال ياقوت الحموي في مادة « الحريم » من معجم البلدان : « حريم دار الخلافة ببغداد ، ويكون بمقدار ثلث بغداد ، وهو في وسطها ودور العامة محيطة به وله سور يتميز ، ابتداءً من دجلة وانتهاءً إلى دجلة كهيأة نصف دائرة ، وله عدة أبواب ، أولها من جهة الغرب باب الغربية وهو قرب دجلة جداً ثم باب سوق التمر وهو باب شاهق البناء أغلق في أول أيام الناصر لدين الله ابن المستضي ، واستمر غلقه إلى هذه الغاية ثم باب البدرية ثم باب الشوبهي وعنده العتبة التي تقبلها الرسل والملوك إذا قدموا ببغداد ، ثم باب العامة وهو باب عمورية أيضاً ثم يمتد [السور] قرابة ميل ليس فيه باب إلا باب البستان قرب المنطرة التي تنحرتحتها الضحايا ثم باب المراتب ، وبينه وبين دجلة نحو غلوتي سهم في شرقي الحريم ، وجميع ما يشتمل عليه هذا السور من دور العامة ومحالها وجامع القصر ، وهو الذي تقام فيه الجمعة ببغداد ، يسمى الحريم ، وبين هذا الحريم المشتمل على منازل الرعية وخاص دور الخلافة التي لا يشركه فيه

(١) المتظم « ١٠ : ١٠٢ » يعني باب المدرسة النظامية .

أحد سور آخر يشتمل على دور الخلافة وبساتين ومنازل نحو مدينة كبيرة ^(١) .

وأعاد ياقوت كلامه على حریم دار الخلافة في كتابه : المشترك وضعاً المختلف صقماً ، وزاد شيئاً في بعض المواضع منه قال : « الحریم بفتح الحاء وكسر الراء وياء ساكنة ، الأول حریم دار الخلافة ببغداد وهو مقدار ثلث مدينة السلام ببغداد وعليه سور من دجلة إلى دجلة كهيأة الهلال أو نصف دائرة ، وله أبواب أولها باب الغربية على دجلة ثم باب سوق التمر : باب شاهق البناء ، وأغلق في أول أيام الناصر ، واستمر غلقه إلى الآن [يعني سنة ٦٢٦] ثم باب البدرية ثم باب النشوي وفيه العتبة التي تقبلها الرسل ، والملوك إذا قدموا ببغداد ثم باب العامة ويقال له أيضاً باب عمورية وبين هذين البابين محال يسكنها عامة الناس بينهم وبين دار الخلافة سور آخر فيه عدة أبواب منها باب الدوامات وباب عليان وباب الحرّم وغير ذلك ثم يمتد نحو ميل لا باب فيه إلا باب بستان في آخر المأمونية تحت المنظرة التي تنجر تحتها الضحايا في الأعياد ثم باب المراتب بينه وبين دجلة من جهة باب الأزج نحو رميتي سهم ، وجميع ما يشتمل عليه هذا السور يسمى حریم دار الخلافة فيه محال وأسواق وخانقاهات - يعني ربط الصوفية أي تكياتهم - ودور كثيرة للرعية كأبر مدينة ، وبين منازل الرعية وبين دجلة سور آخر من دون دور الخلافة لا يشركه فيه شيء من منازل غيره ، وإنما بسطنا القول في هذا وذكرناه لسكثرة ما يجيء ذكره في التواريخ والأخبار وربما نسب إليه بعض الرواة ^(٢) .

وذكر شمس الدين الذهبي في كتابه المشتبه في أسماء الرجال في الحریمی دار الخلافة في نسب الحریمی وذكر « باب النصر » مكان باب البستان وهذه التسمية أطلقها على هذا الباب الخليفة المسترشد بالله باعث النهضة الأخيرة في الدولة العباسية ، أطلقها تقليداً

(١) معجم البلدان في مادة « حریم » .

(٢) المشترك وضعاً المختلف صقماً في مادة « حریم » . ونسي هنا ياقوت « باب الخاصة » وذكره في

مادته من المعجم المذكور .

للفاطميين في تسميتهم أحد أبواب القاهرة « باب النصر » ، كما قلنا المنصور هشام بن عبد الملك في تسمية مقر المهدي في الجانب الشرقي بالرصافة ، فلهشام رصافة في بلاد الشام كما هو معروف مشهور . ولم يذكر أحد قبلنا سبب اختيار المنصور اسم الرصافة .

إن وصف سور الحريم المذكور بالهلال ونصف الدائرة يقرب من أذهانتنا شكاه ، ولا يد للسور في أصول العمارة القديمة الزمان من مساحة كالمساحة تفصل بينه وبين غيره تمهيداً للدفاع في يوم الهجوم والقراع ، وهذا الفاصل قد زال واتخذ دوراً ومنازل ومرافق أخرى كالكاكين والأسواق وكان ذلك بعد زوال دولة بني العباس ، فلذلك يصعب علينا تحديده فضلاً عن تعيينه إلا أن جامع القصر الذي هو جامع سوق الغزل يكون في نقطة هندسية من نقاطه الشرقية من غير شك ، والظاهر أنها أبعد نقطة من الشرق .

وأصح الشوارع مطابقة لمبدأ سور دار الخلافة الكبير هو شارع السموءل الممتد من شارع الرشيد والمنتهي إلى المشرعة عند قهوة الشط ، وفي هذا الشارع ينبغي أن يُظن وجود الأبواب العليا قديماً أعني أبواب السور ، وأولها باب الغربية ، نسبة إلى شجرة غرب كانت مغروسة عنده في أول انشائه ، وهو مطابق لباب شارع المستنصر الحالي ، المسمى قبل عدة سنوات ، بشارع النهر . ولقائل أن يقول: ولماذا لا تعد سوق البزازين الكبيرة القريبة من شارع السمؤال الموازية له تقريباً ، الشارع أو الدرب المحاذي لسور دار الخلافة ؟ والجواب أن هذه السوق كانت من أقسام سوق الثلاثاء ببغداد ، قال ابن بطوطة في رحلته في ذكر الجانب الشرقي من بغداد ، وهذه الجهة الشرقية من بغداد حافلة الأسواق عظيمة الترتيب ، وأعظم أسواقها سوق تعرف بسوق الثلاثاء كل صناعة فيها على حدة ، وفي وسط هذه السوق المدرسة النظامية العجيبة ، التي صارت الأمثال تضرب بحسبها ، وفي آخره المدرسة المستنصرية ونسبتها إلى أمير المؤمنين المستنصر بالله أبي جعفر ^(١) . نخط سور

(١) تجنة النظار في غرائب الامصار (١ : ١٢٦) .

دار الخلافة يبدأ إذن من آخر شارع السمؤال المفضي إلى شط دجلة ويمتد شرقاً على خط نصف دائرة ، على التقريب حتى ينتهي في الجنوب عند شط دجلة أيضاً ، كما يستخلص من النصوص التي آثرناها وأثرناها . ولكن كيف نعين موضعه في الجنوب ؟ نعينه بذكر باب قديم العهد من أبواب دار الخلافة هو « باب الخاصة » الجديد ^(١) ، قال ياقوت في معجم البلدان : « باب الخاصة كان أحد أبواب دار الخلافة المعظمة ببغداد أحدثه الطائع لله تجاه دار الفيل وباب كلواذا ، واتخذ عليه منظره تشرف على دار الفيل وبراح واسع واتفق أن كان يوماً في هذه المنظره وجوزت عليه جنازة ... الزاهد المعروف بعلام الخلال فرأى الطائع منها ما أعجبه فتقدم أي أمر بدفنه في ذلك البراح الذي تجاه المنظره وجعل دار الفيل وقفاً عليه ووسع به في تلك المقبرة وهي الآن على ذلك إلا أن هذا الباب لا أثر له اليوم ، ويتلو هذا الباب من دار الخلافة باب المراتب وهذه الأبواب ذكر في التواريخ .

فالزاهد المعروف بعلام الخلال هو الخلافي ، وقد دفن كما مر في النص في البراح المقابل لباب الخاصة المذكور ، وبه نعلم تقدير المسافة بين سور دار الخلافة من الجانب الشرقي وقبر الشيخ الخلافي ، وقولي « باب الخاصة القديم » لأن باب البدرية المقدم ذكره آنفاً كان يسمى في أيام المعتضد بالله « باب الخاصة » ثم نسب إلى بدر أحد الأمراء المماليك فقبل باب بدر ثم قبل باب البدرية من أجل المحلة المنشأة حياؤه ، ولعله بدر المعتضدي والظاهر أن الشعب هو الذي سماه بذلك الاسم فغلبت تسمية الشعب على غيرها .

فسور دار الخلافة من جهة الجنوب كان يصل إلى محلة المربعة ولا يتجاوز محلة رأس الساقية ، وفيها اليوم الشارع الممتد من شارع الرشيد إلى تربة الشيخ الزاهد عبد القادر الجيلي ، ويؤيد ما قلت ما ذكره ابن جبير في تعيين الموضع الذي رأى فيه أبا الفرج بن الجوزي يعظ الناس فيه ، قال : « ثم شاهدنا صبيحة السبت بعده مجلس الشيخ الفقيه

(١) قلت ذلك لئلا يلتبس باب الخاصة العتيق ، وهو باب بدر ، تراجع « منظره الريحانيين » من معجم البلدان ، والمراد ، وكان في أعلى دار الخلافة العباسية ، تراجع كتاب « رسوم دار الخلافة » ص ٧٦ « التصحيح التليقي » .

الامام الأوحى جمال الدين أبي الفضائل بن علي الجوزي بازاء داره ، على الشط بالجانب الشرقي وفي آخره ، على اتصال من قصور الخليفة ، وبمقربة من باب البصلية آخر أبواب الجانب الشرقي (١) . فباب البصلية هو باب كلواذا آخر أبواب بغداد الشرقية من جهة الجنوب الشرقي وهو اليوم الباب الشرقي .

وتسأل بعد ذلك ما كان داخل سور دار الخلافة الصغير القائم وراء سورها الكبير المحيط بدور الخلفاء ومجالسهم ومرافقها ومنازلها ؟ ذكرنا آنفاً قول الخطيب البغدادي : « كانت دار الخلافة التي على شاطئ دجلة تحت نهر المعلى قسديماً للحسن بن سهل » وزير المأمون وحميه أي والد زوجته السيدة خديجة بوران ، وذكر بعد ذلك أنها تسمى أي الدار (القصر الحسيني) فلما توفي الحسن بن سهل صارت الدار لابنته بوران فاستنزلها عنها الخليفة المعتمد على الله قبل سنة ٢٧١ فاستنظرته أياماً لتفريغها وتسليمها ثم رمتها وعمرتها وجصصتها وبيضتها وفرشتها بأجل الفرش وأحسنه وعلقت أصناف الستور على أبوابها وملأت خزائنها بكل ما يصلح للخلفاء ، ورتبت فيها من الخدم والجواري ما تدعو الحاجة إليه ، فلما فرغت من ذلك انتقلت من الدار وأرسلت إلى المعتمد على الله تدعوه إلى الانتقال إليها ، فانتقل وبهذا الانتقال تركت عاصمة الدولة سامرا ونقلت الخلافة إلى بغداد واتخذت عاصمة كما كانت في أيام المنصور ومن بعده من الخلفاء حتى عهد المعتصم بالله المنتقل إلى سامراء . ولما ولي الخلافة المعتضد بالله استضاف إلى تلك الدار مما جاورها كل بقعة توسعها وتكبرها ، وبني عليها سوراً جمعها به وحصنها وتولى الخلافة بعده ابنه المكتفي بالله فبنى قصر التاج على دجلة وأنشأ عنده قباباً ومجالس تنهى في توسعتها وتعليقها ، واستخلف المقتدر بالله فزاد في ذلك بما أنشأه واستحدثه من البنيان (٢) .

(١) رحلة ابن جبير (ص ٢٢٠) .

(٢) تاريخ بغداد (١ : ٩٩) .

لم يذكر المؤرخون أوصاف البنيان ، بحيث يستفيد من وصفهم أبناء هذا الزمان ،
فالتاج العظيم لم نعلم من وصفه إلا ما ذكره ياقوت من أن وجهه - ولا تقل واجهته - كان
مبنياً على خمسة عقود كل عقد على عشر أساطين بخمسة أذرع ، وفي أيام المقتفي لأمر الله
في أواسط القرن السادس وقعت صاعقة عليها فتأججت فيها ، وفي قبة الحمار التي كان
يصعد إليها في مدرج على حمار صغير ، وكانت عالية على شكل نصف دائرة ، وشبت النار
في الدار التي فيها القبة وبقيت النار تستعر تسعة أيام ثم أطفئت ، وقد صيرت القصر
كالفحمة ثم أعاد المقتفي البناء على الصورة الأولى ولكن بالجص والأجر أي الطابوق بغير
أساطين رخام وأهمل إتمامه حتى مات وبقي كذلك إلى عهد المستضيء بأمر الله فأمر بنقضه
وإبراز المسناة التي بين يديه حتى تمازى مسناة التاج فشق الأساس ووضع البناء على خط
مستقيم من مسناة التاج واستعملت أنقاض التاج مع ما كان أعد من الآلات في عمل
هذه المسناة ، وأنشئ هناك صحن وهو الصحن الذي يبایع الناس فيه الخلفاء في العادة^(١) .
ومن أشهر المباني في دار الخلافة « دار السيدة بنفشة » حظية الخليفة المستضيء
بأمر الله وكانت في موضع خان الدامر جي ، وما حوله وكانت تشرف على شط دجلة وكانت
تسمى أيضاً « دار سوق التمر » قال صفي الدين عبد المؤمن البغدادي في مراصد الاطلاع :
« دار سوق التمر هي الدار المتصلة بباب الغربية ومن الجهة الأخرى بالسدرية وهي دار
عظيمة من دار الخلافة مشرفة على مشرعة الابرين لها باب عال ودركاه في صدر المخلطين »
وقال تاج الدين ابن الساعي : « بنى الامام المستضيء ، بأمر الله للسيدة بنفشة داراً مجاورة
لباب الغربية الشريف على شاطئ دجلة فجاءت عالية البناء واسعة الفناء تشتمل على مقاصير
وحجرات ومناظر ومشرهات ، ويجاور هذه الدار أربعة دواليب تستقي الماء من دجلة الى
دار الخلافة المعظمة كل واحد أعلى من الآخر ، فيأخذ الأول من دجلة والثاني من الأول

(١) تاريخ بغداد (١ : ٩٩) .

والثالث من الثاني والرابع من الثالث» (١) .

وكان في دار الخلافة قصر الفردوس الذي أنشأه المعتضد بالله ودار الشجرة المعلومة الأخبار ، وخان الخليل وهو دار أكثرها أروقة بأساطين رخام ، ودار السباع ، والجوسق المحدث ، وهو دار بين بساتين في وسطها بركة رصاص قلعي ، حوالها نهر رصاص قلعي أحسن من الفضة المجلوة ، طول البركة ثلاثون ذراعاً في عشرين ذراعاً ، وكان فيها الدار المربعة ، والدار المثلثة التي قعد فيها هولاء كوفي احتلاله بغداد ، لما رغب في أن يرى دار الخلافة ، وقد عجمتها التواريخ الفارسية الى « دار الميمنة » مع أنها المثلثة أي الثمانية الجدران ذكر ذلك الخطيب البغدادي وياقوت الحموي ورشيد الدين .

وكان فيها دار الفلك أنشأها الخليفة الناصر لدين الله رباطاً للنساء العابدات سنة ٥٨٦ ورتب فيها رئيسة للزاهدات ابنة الأمير السيد العلوي الملقبة بست الخدور (٢) . ولم تقف على صريح اسمها فيما وقع إلينا من التواريخ ، وأبوها فقيه علوي حنفي مشهور .

وبعد أن ذكرنا موجز أخبار التأسيس لدار الخلافة العباسية نقلاً من تاريخ الخطيب ، نذكر أخبار التأسيس مفصلة أكثر مما ذكره ياقوت الحموي منها في كلامه على « التاج » قصر المكتفي في معجم البلدان ، وهذا التفصيل وجدناه في بعض تواريخ المؤرخ الكبير تاج الدين علي بن أنجب ابن الساعي ، حيث ذكر سيرة السيدة خديجة بوران بنت الحسن ابن سهل إحدى زوجات المأمون ، قال :

« وذكر عبید الله بن أحمد بن أبي طاهر أن بوران توفيت يوم الثلاثاء لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة إحدى وسبعين ومائتين وقد بلغت من السن ثمانين سنة . قلت : وكانت وفاتها ببغداد لأنها كانت تسكن بالقصر الحسيني المنسوب إلى أبيها الحسن بن سهل ،

(١) جهات الأئمة الخلفاء من الخرائز والاماء (طبعة دار المعارف ص ١١٣) .

(٢) مرآة الزمان « ٢٠١/٥ » .

وهذا القصر كان أولاً يسمى (القصر الجعفري) نسبة إلى جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، وهو أول بناء وضع في قديم الزمان بمدينة السلام^(١). أخبرني أبو القاسم علي بن عبد الرحمن بن علي [ابن الجوزي] إذنا عن أبي محمد عبد الله بن الخشاب النحوي قال حدثنا أبو القاسم الربيعي أخبرنا أفضى القضاة أبو الحسن الماوردي أخبرنا أبو علي الأزدي قال حدثنا أبو جز (كذا) قال حدثنا أبو العيناء قال: كان جعفر بن يحيى البرمكي شديد الشغف بالآخوان، كثير المحبة للقيان، قد أعطى اللذات قياده، وجعل مواسم القصف واللهو أعياده، وكثر ذلك منه، واشتهر عنه، وتكلم الأعداء فيه بسببه، فخلاه والده وأنكر عليه فعله وقال له: إذا لم يكن لك قدرة على الاستتار في لهوك وشربك، والكم للمجالس أنسك ولعبك، فاتخذ لنفسك قصراً بالجانب الشرقي، تجمع فيه نساءك وقيانك، وتقطع معهم زمانك، وتبعد عن أعين العامة، وتخفي أمورك على أكثر الخاصّة، ويقل القول فيك، وينقطع الكلام عنك، ويكون أصلح لشأنك عند سلطانك. فعمد جعفر إلى الجانب الشرقي واتخذ به قصراً شيد بشاءه، وأوسع فناءه وفضاءه، واتخذ فيه بستاناً ذا رياض مخصبة مربعة، وغرس به من أنواع الشجر ما يثمر بكل ثمرة بدیعة، وبالغ في إنفاق الأموال، وجمع الصناع والرجال، فلما قارب الفراغ من بنائه، صار إليه ومعه أصحابه وفيهم مؤنس بن عمران، وكان طاقلاً لبيباً كاملاً قطاب به واستحسنه، وقال من حضر من أصحابه في ذلك فأكثروا القول، ومؤنس ساكت، فقال له جعفر: مالك لا تتكلم؟ قال: فيماذا؟ قال: فيما قال أصحابنا. قال: كفاني قولهم ولا زيادة فيه، وكان جعفر ذكياً، فعلم أن تحت قول مؤنس معنى، فقال: وأنت أيضاً فقل، قال: هو ما قالوا، قال [جعفر]: أقسمت عليك لتقولن. فقال له: إذ أبيت إلا أن أقول أفتصبر على الحق؟ قال: نعم. قال: أريد خلوة. فلما خلا به قال: أطيل فيما أقول أم أختصر؟ قال:

(١) لعله أراد « أول بناء » في أسفل الجانب الشرقي من مدينة السلام بغداد .

بل اختصر. قال : أسألك إن خرجت الساعة فررتَ بدار لبعض أصحابك تُشبه دارك هذه
 أو تقاربها ما كنت صانعاً وقائلاً ؟ قال : قد فهمت ، فما الرأي ؟ قال : هو رأي إن أخرته
 عن ساعتك هذه فات قال : وما هو ؟ قال : لست أشك في أن أمير المؤمنين قد طلبك
 وسأل عن خبرك تُخبر أنك قد ركبت إلى قصرك ، فضجر من تأخرك ، فأطل اللبث هاهنا
 ثم امض إليه من فورك ، وعليك أثر الغبار ، فاذا سألك عن حالك ، فقل : صرتُ إلى
 القصر الذي بنيته للمأمون . ثم أتبع ذلك من القول بما أنت أعلم به . وكان جعفر قد
 اتخذ في هذا القصر ثلاث مئة وستين مرفقاً ما بين مجلس ومستشرف وحجرة وخيش
 وخزانة ، وكتبت إلى كل ناحية بأن تُتخذ لكل مقصورة فرش على مقادير أبنيتها ، وكان
 القول قد كثر جداً في ذلك البناء وما كتب في استعماله من الفرش له ، فأقام جعفر في القصر
 هنيئاً ثم مضى من فوره فدخل على الرشيد ، فسأله [الرشيد] عن خبره ومن أين جاء ؟
 قال : كنت في القصر الذي اتخذته لمولاي المأمون بالجانب الشرقي على دجلة . فقال له
 الرشيد : أو للمأمون بنيته ؟ قال : نعم ، فانك يا أمير المؤمنين في ليلة ولادته شرفتني بأن
 جعلته في حجري قبل جعله في حجرك واستخدمتني له ، وعرفت محله من قلبك فدعاني
 ذلك إلى أن اتخذت له هذا القصر بالجانب الشرقي في موضع معتدل الهواء ، طيب الشراء ،
 ما بين رياض زاهرة ، ومياه جارية ، بعيداً من أصوات الناس والدخاخين المؤذية ، والروائح
 الممتنة ، ليتسكنه حواضنه وداباته ، وجواريه وقهرماناته ، فيصح بذلك مزاجه ، ويتم
 نشوؤه ، ويصفو ذهنه ، ويذكو قلبه ، وينمو لبه ، ويضيء فهمه ، ويحسن لونه ، ويزيد
 جسمه ، ومع ذلك فأنني قد كتبت إلى النواحي جميعاً باتخاذ فرش لهذا البناء على مقاديره ،
 وبقي شيء لم يتهيأ اتخاذه إلى الآن ، وقد عوّلنا على خزائن أمير المؤمنين ، إما عارية أو
 هبة . قال : بل هبة . وأسفر إليه ، وأقبل وجهه عليه ، وقال : أبي [الله] أن يقال عنك
 إلا ما هو لك ، وأن يُطمئن فيك ، إلا بما يرفعك ويعليك ، والله لا سكنه أحد لاسواك ، ولا

تم ما يعوزه من المفارش إلا من خزائنا . وزال من نفس الرشيد بتلك الفعلة ما كان
جمل عليه من السعيات ، وظفر بالقصر ، وانقطعت الأقاويل عنه . ولم يزل جعفر يتردد إليه
في كل أوقات أفراحه ، إلى حين واقعتهم ، وانقضاء دولتهم ، وإلى حينئذ كان يسمى
(القصر الجعفري) .

وقال ابن الساعي بعد ذلك :

ذكر انتقال هذا القصر وكيف صار إلى المأمون وما أضاف إليه من الأبنية .
ذكر بعضهم أن هذا القصر صار إلى المأمون ، وكان من أكمل القصور وأبهها ، وأحب
المواضع إليه وأشهاها ، لاطلاله على دجلة وكماه في النظر ، واشتماله بالعروض والشجر ،
واكتسائه بالنور المشرق النائر ، والزهر الموثق الزاهر ، فنزل بساحته ، وحل به حبي
راحتته ، وجرت على رياضه ذبوله ، وطارده في ميدان سروره خيوله ، ملتذاً بسكناه ،
معتداً بهواه ، وصار منزل صيده وقنصه ، ومحل نزهه وفرصه ، واقتطع جملة من البرية ،
فعملت ميداناً ركض العلمان ، واللعب بالكرة والصولجان ، وحيراً لجمع الوحوش في
أوقات تصيده ، وفتح له باباً شرقياً إلى جانب البر ، واتخذ على أعلاه منظره تشرف على
سرام واسعة ، لمن عساه يصل من طريق خراسان ، ونواحي همدان وأذربيجان ، وأجرى
على ذلك الباب نهراً ساقه من نهر المعلى ، وابتنى عليه وقريباً منه منازل برسم خاصته ،
وأصحابه وحاشيته ، سميت المأمونية وهي الآن محلة الشارع الأعظم ^(١) فيما بين عقدي
المصطنع والزرادين .

وعنون ابن الساعي بعد هذا كلامه بما يلي السطر :

« ذكر انتقال هذا القصر إلى الحسن بن سهل واشتماره به وما زاد فيه من الأبنية

(١) الشارع الأعظم في شرق بغداد كان في موضع الشارع الكبير الذي يشتق الجانب الشرقي من

محلة عقدي القتل إلى جهة الصدرية المجاورة لمحلة باب الشيخ عبد القادر الجيلي المعروف بالكيلاني - ر - ح .

كان المأمون بخراسان مع والده ، فلما توفي والده هناك بويع المأمون بخراسان وبويع أخوه الأمين ببغداد وجرت الفتن العظيمة إلى أن قتل الأمين - رحمة الله عليه - ، فلما وصل البريد بخبر قتله إلى المأمون أرسل الحسن بن سهل خليفة له على العراق ^(١) ، لتدبير الأمور بها ، فوردها بعد انقضاء فتنة الأمين في سنة ثمان وتسعين ومئة ، ونزل القصر المأموني المذكور ، وتزوج المأمون بُوران بنت الحسن بن سهل بمرو ، بولاية عمها الفضل بن سهل : فلما قدم المأمون من خراسان في يوم السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من صفر من سنة أربع ومائتين دخل إلى قصر الخلافة بالتخلد بالجانب الغربي فسكنه ، وبقي الحسن بن سهل مقبياً بالقصر المأموني إلى أن عمل عرس بوران بفهم الصلح ونقلت إلى بغداد وأنزلت بالقصر . وطلبه الحسن من المأمون فكتبه له ، ومنذ ذلك الوقت أضاف إليه ما حوله ، وغلب اسم الحسن عليه وعرف به ونسب إليه . ذكر أحمد بن أبي طاهر في كتاب بغداد قال : حدثني بعض مشايخنا قال : لما بنى الحسن بن سهل قصره هذا جعل بين سورته وبين شط دجلة فضاء كبيراً ، فقبل له : لو جعلته راكباً على دجلة كان أحسن ، فقال : ما أنا والنزهة والاشراف إلى دجلة ؟ إنما يفعل هذا أهل الفراغ والبطالة ونحن عن النزهة في شغل . ثم ابتاع الموفق بالله هذا القصر ونزله ثم هدمه المعتضد بن الموفق وبناه وزاد فيه ومدّه إلى حد ^(٢) نهر بين ونزله المكتفي ^(٣) .

وقال الخطيب البغدادي : « ثم استضاف المعتضد بالله إلى الدار مما جاورها كل ما وسعها به وكبرها وعمل عليها سوراً جمعها به وحصنها ، وقام المكتفي بالله بعده ببناء التاج على دجلة وعمل وراءه من القباب والمجالس ما تناهى في توسعته وتعليته ، ووافى

(١) قال الجوهري في الصحاح : « والعراق بلاد يذكر ويؤنث وقيل هو فرسي معرب » .

(٢) يعني المؤرخ بحد إلى نهر بين (على وزن بين) فتح طريق تحت الأرض . ووزج أي معقود السنف

يؤدي إلى قصره الجميل المعروف باسم التريا المتصل بحد الوحوش .

(٣) جهات الائمة الخلفاء من الخرائر والاماء « من ٧٢ - ٧٨ طبعة دار المعارف بمصر » .

المقتدر بالله فزاد في ذلك وأوفى مما أنشأ واستحدثه ، وكان الميدان والثريا وكذا حير
الوحش متصلًا بالدار^(١) » وقد قدمنا ذلك ثم قال في ذكر جوامع بغداد : « فلم تكن صلاة
الجمعة تقام بمدينة السلام إلا في مسجدي المدينة والرصافة إلى وقت خلافة المعتضد ، فلما
استخلف المعتضد أمر بعارة القصر المعروف بالحسني على دجلة سنة ثمانين ومائتين ، وأنفق
عليه مالاً عظيماً ، وهو القصر المرسوم بدار الخلافة ، وأمر ببناء مطامير في القصر رسمها
هو للصناع ، فبنيت بناءً لم ير مثله ، على غاية ما يكون من الاحكام والضيق ، وجعلها
محابس للأعداء ، وكان الناس يصلون الجمعة في الدار ، وليس هناك رسم لمسجد ، وإنما
يؤذن للناس في الدخول وقت الصلاة ، ويخرجون عند انقضائها ، فلما استخلف المكتفي
في سنة تسع وثمانين ومائتين نزل^(٢) القصر وأمر بهدم المطامير التي كان المعتضد بناها ،
وأمر أن يجعل موضعها مسجد^(٣) جامع في داره ، يصلي فيه الناس ، فعمل ذلك وصاروا
يبكرون إلى المسجد الجامع في الدار يوم الجمعة فلا يمنعون من دخوله ، ويقسمون فيه إلى
آخر النهار ، وحصل ذلك رسماً باقياً إلى الآن^(٤) » توفي الخطيب سنة ٤٦٣ .

وقد أنشئ لهذا المسجد مئذنة وهي التي تعرف غالباً باسم المنارة ، وآخر منارة له
هي هذه القائمة اليوم فيما بقي من المسجد المعروفة بمنارة جامع سوق الغزل المطلة على
شارع الجمهورية المشتق في هذه الأيام ، وكانت قد جددت سنة « ٦٧٠ » في أيام الملك
أباقا بن هولاقو الأيلخاني وولاية علاء الدين عطا ملك الجويني إلا أنها سقطت ، ثم أعيد

(١) تاريخ بغداد ١ : ١٠٩ .

(٢) في نسخة تاريخ الخطيب المطبوعة ببصر « ترك القصر » وهو ضد المراد والمعروف .

(٣) هو المسجد المعروف بجامع سوق الغزل وأيامنا وكان يسمى جامع القصر نسبة إلى نصر التاج وجامع
الخلافة نسبة إلى منشئه ثم سمي جامع الخلاء ، وليس هذا الجامع جامع الرصافة الذي أنشأه المهدي في
الرصافة قرب تربة الامام الأعظم .

(٤) تاريخ بغداد ١ : ١٠٩ .

بناؤها على هذه الصورة الماثلة من الضخامة والقوة والمتانة والرصانة ، وإن تحيّفها الزمان ، وأثرت فيها الرياح والأمطار على اختلاف الأعصار ما تؤثره في أمثالها من البنيان ، من الأجر ومشتقاته لامن الحجر والصوان ، جاء في أخبار سنة « ٦٧٠ » ما هذا نصه :
 « وفيها أمر علاء الدين صاحب الديوان بتجديد عمارة منارة جامع الخليفة ، وكان صدر الوقوف^(١) يومئذ شهاب الدين علي بن عبدالله ، فشرع في ذلك ، وانتجرت في آخر شعبان ثم سقطت في شهر رمضان بعد فراغ الناس من صلاة التراويح ولم يتأذأ أحد من كان هناك^(٢) . »

وفي سنة ٦٧٨ تم تجديد سمارتها الحالية ، فقد جاء في أخبارها ما هذا نصه « وفيها تمت عمارة منارة عمارة جامع الخليفة ، وكانت قد سقطت في شهر رمضان سنة سبعين [وستائة]^(٣) . »

وقد ذكر هذا المسجد ومنارته العلامة الراحل السيد محمود شكري الألوسي - رح - في كتابه تاريخ مساجد بغداد وآثارها قال : « كانت هذا هو المسجد الجامع أيام الدولة العباسية^(٤) ... وكان مصلّى خليفة المسلمين من بني العباس ، ومصلاه يومئذ يسع جمعاً لا يحصون ، بعمارة تروق الناظر إحكاماً وصنعة ، وفيه مثدنة شاهجة تناطح السحاب ، فلما دارت دوائر البلى على مدينة السلام أنهدت أركانها ، واندرست رسومه وآياته ، ولم يبق

(١) يعني لأوقاف .

(٢) كتاب الخوادث الذي سماه المهدي الراحل يعقوب نعوم السركسي « الخوادث الجامعة » وتابعته في ذلك ونسخته بذلك الاسم ثم تبين لي أنه غير الخوادث الجامعة وإن كانت التسمية تدنو إلى ذلك الحبان والظاهر لي أنه تأليف « محب الدين أبي العباس أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبي بكر العلوي الكرجي ثم البغدادي المقرئ المؤرخ شيخ دار القرآن البشيرية على شاطيء دجلة بالجانب الغربي ، المتوفى ببغداد سنة ٧٤٦ . ترجمه ابن الفوطي في كتابه تلخيص مجمع الآداب في المنقبين بسحب الدين من الأحمدين . »

(٣) كتاب الخوادث المذكور « ص ٤٠٨ . »

(٤) يعني في القرن الثالث وما بعده .

منه إلا مئذنته التي بقيت تندب قومها وتبكيهم ، ثم صار هذا الجامع محلة كبيرة وسوقاً واسعة تسمى (سوق الغزل) وبقيت عرصة خالية ، فعمر فيها أبو سعيد سليمان باشا والي بغداد في سنة ١١٩٣ مسجداً إبقاءً لذكرى هذا المعبد الشهير وعين له مدرساً وإماماً وجملة من الخدم ^(١) . وقد اهتمت مديرية الأوقاف في هذه الأيام ثم وزارتها الحالية بهذا الجامع المبارك فامتلكت بالشراء عدة دور كانت قد اغتصبت أرض الجامع قديماً لتنشيء على أرضها مسجداً صغيراً يحفظ على هذا المعبد الاسلامي العظيم حرمة وكرامته وتاريخه الزاهي ، ونعم ما فعلت .

مصطفى جواد

(١) تاريخ مساجد بغداد وآثارها ، ص ٣٩ ، ٤٠ .